مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 03 جوان (2021) - ص 244- 258

اللغة العربية من منهج الخبر إلى منهج النظر

The Arabic language from the mode of information to the approach of consideration

ابن شماني محمد

benchemanimohamed48@gmail.com
جامعة غليزان/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2021/01/23 تاريخ القبول: 2021/05/15 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص البحث

تقلّبت اللغة العربية في الأقل بين منهجين علميين مختلفين عبر مراحلها التكوينية والتطورية، أولهما: هو المنهج الخبري أي: المنهج القرآني الذي اتخذه العلماء المتقدمون قاعدة معرفية ومنهجية في دراسة اللغة العربية، وثانيهما: هو المنهج النظري، أي: المنهج العقلاني كما صاغه اللسانيون الغربيون، واتخذوه قاعدة معرفية ومنهجية في دراستهم للغة الإنسانية، وهو عين المنهج الذي تأثر به معظم الباحثين اللسانيين العرب المحدثين.

الكلمات المفتاحية: الخبر. النظر. التراث. الغرب. العقلاني. العربية.

ABSTRACT:

The Arabic language has fluctuated at least between two different scientific approaches throughout its formative and developmental stages. The first of them is the informative approach, that is, the Qu'ranic approach that advanced scholars have adopted as a base of knowledge and methodology in the study of the Arabic language.The second is the hypothetical approach, that is, the rational approach, as formulated by Western linguists and engaged as an epistemological base in their study of human language, the same approach that influenced most modern Arab linguistic researchers.

Key words: information, consideration, heritage, western, rational, Arabic

بات من المسلّم به أن نشأة الدرس اللساني العربي قد ارتبط بنشأة النحو العربي،وهذا ما تناقلته معظم كتب التراجم والطبقات فضلا عن كتب تاريخ النحو العربي وأصوله ، كما ارتبط هذا الدرس اللساني في جانب آخر بشخصية أبي الأسود الدؤلي (ت 69ه) باعتباره الواضع الأول لمبادئ اللسانيات العربية عموما، ولمبادئ النحو العربي خصوصا[1] و بغض النظر عن حقيقة ذلك، فإننا نظن أن تلك القصة التي حبكت حول الكيفية والسبب اللذين لأجلهما وضع أبو الأسود الدؤلي أوليات الدرس اللساني العربي تشوبها شكوك لعلل ليس هذا سياق ذكرها.

وسواء أكان الواضع هو الإمام أبو الأسود الدؤلي أم كان غيره ، وبأمر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أم لا ، فإن الهدف الأساس، والغاية القصوى من ذلك كله هو حفظ كتاب الله تعالى من تطرق اللحن إليه تلاوة وإعرابا وفهما، وحماية اللغة العربية تباعا، ابتداء من ذلك تحدد الهدف والمنهج الذي سار عليه العلماء العرب خلفا عن سلف إلى غاية المرحلة التي عرف فيها النحو العربي خاصة الكثير من التعقيد والضبابية في مناقشة ودراسة العديد من مفاهيم وقوانين اللغة العربية إن على مستوى اللغة الواصفة أو على مستوى الواقع اللغوي الفعلي؛ لهذا السبب يمكننا أن نقسم أهم المراحل التي مرت بها اللغة العربية إلى ثلاث مراحل كبرى من حيث المنهج والهدف معا ، وهي :

- مرحلة اللغة العربية في ظل المنهج الخبري .
- مرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري .

ولنا إمكانية تقسيم المرحلة الثانية إلى مرحلتين هما: مرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري لدى النحاة المتأخرين، ومرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري لدى اللسانيين العرب المعاصرين، ونحن سنتعامل مع هذه التقاسيم باعتبارها معالم تتيح لنا معرفة التقلبات التي طرأت على اللغة العربية وتحولها عن المنهج الخبري إلى المنهج النظري . ولا بد من التنبيه إلى أننا سنقتصر على المرحلتين البارزتين الأولى والثانية دون التعرض إلى قسمي المرحلة الثانية.

المرحلة الأولى:

أ - اللغة العربية في ظل المنهج الخبري :

إن المقصود بالمنهج الخبري هو منهج القرآن الكريم وأثره في حماية اللغة العربية بوصفه، المنهج الذي أتاح للعلماء القدامى وضع وصياغة قوانين اللسان العربي ، نحوا وصرفا ومعجما وبلاغة وأسلوبا ودلالة...إلخ ، على أسس علمية موضوعية ومتينة ، لذلك يعد المنهج الخبري منطلقا قويا اتخذه العلماء العرب المتقدمون قاعدة منهجية ، ومنه استطاعوا أن يصوغوا العديد من قواعد اللغة العربية ، ولعل أهم ما انجرّ عن ذلك هو حظوة اللغة العربية بحماية منقطعة النظير، فصارت العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية علاقة لزومية ، تدور بينهما وجودا وعدما.

وكون القرآن الكريم اتخذه العلماء العرب الأوائل منطلقا في بحوثهم اللغوية، فإنه يعني في جانب آخر المدونةَ اللغويةَ التي اشتغل عليها أولائك العلماء ، ومنها استنبطوا وصاغوا ووضعوا ضوابط اللسان العربي ، فبالإضافة إلى كلام العرب شعرا ونثرا كان القرآن الكريم هو العامل الأساس والمحرك في حماية اللغة العربية : لذا ظلت اللغة العربية تدرس في ظل المنهج الخبري ، وظلت النتائج والثمار العلمية التي كان يجنيها علماؤنا المتقدمون في شتى فروع المعرفة اللغوية في رحاب المنهج الخبري أيضا. من هذا المنظور فإننا يمكننا التطرق إلى ذكر خواص اللغة العربية في ظل المنهج الخبري بالوقوف على هذه المحاور الآتية :

1- المدونة اللغوية.

2- المنهج العلمي .

3- الهدف العلمي.

1- المدونة :

تميزت المدونة اللغوية العربية في هذه المرحلة بجملة من الخصائص البارزة ، وأهمها وأكثرها بيانا هي كونها بنيت على خاصية السماع؛ ذلك أن آلية السماع – باعتباره كل " ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته ، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن ، وكلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى زمن فسدت فيه الألسنة بكثرة المولّدين ، نظما ونثرا عن مسلم أو كافر"[2] – تفضي مباشرة إلى أن التعامل مع ما جمع عن العرب الفصحاء هو ذو

خاصية مراسية ، أي إن المدونة اللغوية العربية بالنظر إلى المرحلة الأولى هي مدونة مراسية : لأنها نابعة من كلام عربي فعلي يتكلمه أناس حقيقيون في أزمنة وأماكن فعلية، وكل ما توصل إليه العلماء العرب القدامى من قواعد وضوابط لها علاقة بعلوم اللغة العربية هو من جنس ذلك ، أو بعبارة أخرى : إن قوانين اللسان العربي هي قوانين فعلية تناسب لغة فعلية ممارسة في الزمان والمكان ، ولا حظّ للافتراض في ذلك في الأقل أول الأمر.

إنها مدونة – على حدّ تعبير عبد الرحمن الحاج صالح – من أعظم المدونات اللغوية " التي شهدها تاريخ البشرية ، وقد رأينا أن القبائل العربية التي أُخذت منها اللغة ونتج عن هذا المسموع العملاق كانت تغطي شبه الجزيرة كلها في الجاهلية"[3] والسر في هذا التميز والتفرد اللذين حظيت بهما المدونة اللغوية العربية قديما يرجع إلى ارتباطها المباشر بالمنهج الخبري الذي أمدها بخواص أخرى قلما نجدها في لغات أجنبية ، من ذلك أنها مدونة لغوية عربية مفتوحة ، وهو بخلاف ما دعت إليه التيارات اللسانية الغربية الحديثة والمعاصرة في أوروبا كما في أمريكا الشمالية ، والبنوية منها خاصة.

إن معنى كون المدونة اللغوية مفتوحة هو عدم اقتصارها على عينات لغوية محدودة : بحيث تصير المدونة في صورة نسق مغلق على نفسه،لا يقبل الزيادة فيه أو النقصان منه ، وهو مفهوم صوري يتعارض معارضة صريحة مع مفهوم اللغة المراسية المسموعة من الواقع اللغوي الفعلي :لأجل هذا تعد المدونة اللغوية العربية في ظل المنهج الخبري مدونة فعلية :لأنها مراسية، وكذا مفتوحة ، يقول الحاج صالح في هذا الصدد ما نصه : " فما كانوا يدوّنونه منذ أول سماع يبقى طوال السنين مفتوحا، ونعني بذلك ... أنّ أي لغوي في ذلك الزمان (زمان التدوين) كان يمكنه أن يسمع من فصحاء العرب في أي وقت شاء وأن يروي من شيوخه وممّا سمعه منهم . فسماع هذا اللغوي لا ينحصر فيما سمعه هو ودوّنه بنفسه مباشرة من فصحاء العرب - وكان يمكن أن يكتفي به في نظر البنويين – بل يتألف من جميع المعطيات اللغوية التي وصلت إليه إلى حدّ ذلك الوقت ، ويكوّن هذا الذي تجمّع من سماعه وسماع غيره طول حياته مجموعة مكتملة من النصوص مهما كان، إلا أن هذا المسموع يبقى عند هذا اللغوي مفتوحا في كل وقت مادام يشتغل بالبحث في اللغة العربية "[4] وهذا ما يضمن حضور الجانب الواقعي للغة : بحيث يبعدها عن كل ما يحولها إلى مجموع فرضيات أو قواعد صورية بحتة متعالية على الواقع الفعلي للغة.

بناء على ما تقدم تتحدد أهم خواص المدونة اللغوية العربية التي كان يشتغل عليها علماء اللغة العرب القدامى في ظل المنهج الخبري في كونها مدونة لغوية مراسية ، بمعنى واقعية وفعلية ، ومؤسسة على آلية علمية وموضوعية هي آلية السماع ، وهي أيضا مدونة مفتوحة غير مغلقة على نفسها.

2- المنهج :

وممّا له صلة مباشرة بتلك الخواص المذكورة ، خاصية أخرى متعلقة بالمنهج الذي طبّقه العلماء العرب المتقدمون ، وهو الاستقراء ، باعتباره منهجا تجريبيا ، ولكونه ملائما وموائما لخاصية السماع والمراس اللذين اتصفت بهما المدونة اللغوية العربية : إذ مادامت المدونة اللغوية مراسية فإن هذا يفضي بنا إلى معرفة نوع المنهج المتبع في دراستها ، وهو هنا الاستقراء: لأن ما تم التوصل إليه من نتائج علمية وما وضع من قواعد نحوية وصرفية ومعجمية وأسلوبية وبلاغية كان نتيجة للاختبارات والتحريات والمشاهدات العلمية التي كان يقوم بها العلماء العرب القدامى.

ويعد الاعتماد على المنهج الاستقرائي في دراسة اللغة العربية قديما مظهرا من مظاهر اهتمام العلماء العرب بالجانب المراسي في اللغة العربية ، مما يعني في جهة أخرى أن العلماء المتقدمين كانوا حريصين جدا على تتبع أثار العرب في كلامها ، والتدقيق في الوقوف على سننها وعوائدها في ذلك، فكان أن نتج عنه ابتكار طريقة علمية غاية في الضبط والاستقراء لكلام العرب ووضع القوانين اللسانية التي مازالت قائمة ليوم الناس هذا: لأنهم كانوا الأكثر تحريا واختبارا لكلام العرب، والأكثر حرصا على أن تبقى بحوثهم اللغوية في كنف المنهج الخبري: لذا نلفي في دراساتهم اللغوية المتقدمة بعدا عمليا وواقعيا يتجنب فيه العلماء اللجوء إلى الافتراضات والاختراعات التي لا تتصل بواقع اللغة الفعلي : لأن الثمرة التي كانوا ينشدونها هي أن يلتحق من ليس عربيا بالعربي في كلامه وينحو نحوه في سائر تصرفاته الكلامية. وكفى بهذا دليلا على واقعية الدراسات اللغوية العربية المتقدمة خاصة، ونحن إذا وازنا بين طريقة علماء اللغة في الشطر المنهجي لوجدناها تتفق إلى حد كبير مع طريقة علماء الشريعة الإسلامية في دراساتهم لكتاب الله تعالى ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في ميداني أصول الفقه والحديث النبوي الشريف من دون أن يتطابقا تماما. إن هذا الاتفاق الحاصل بينهما أكسب علماء العربية احتياطا وصرامة منهجيتين دائمتين في استقراء كلام العرب شعرا ونثرا، وما كان لهم ذلك لولا ارتباطهم بقدسية المنهج الخبري منطلقا وهدفا معا ، فكانت النتيجة من جنس المقدمة.

3- الهدف :

أما فيما له علاقة بالهدف الذي كان يصبو إليه العلماء العرب القدامى فإنه كان هدفا تعليميا في المرتبة الأولى، على هذا الأساس كانت العلوم العربية وقتئذ- والنحو من جملتها – متصفة بالبساطة التي عُدمت في العصور اللاحقة وصارت العربية مجرد قواعد صورية خالية من خواص كثيرة كانت متميزة بها، فتعسر تعلمها حتى على أبناء العربية أنفسهم.

إن الجهود العلمية التي سخرها علماء العربية القدامى لصون اللسان عن الوقوع في الخطأ بوضع وصياغة القوانين اللسانية العربية، تجعل للغة العربية بحد ذاتها التي كان يدرسها أولائك العلماء وجودا حقيقيا، مما يتيح لها استقلالية عن تبعية النسق الذي يضعه المنظر عادة، كما هو الأمر في اللسانيات الغربية الحديثة ، أي إن للغة كيانا يخصها وما استنبط منها من قواعد لسانية في جميع المستويات لا يكون غريبا عنها، بل هو أمر ناتج عن تأمل ودراسة وإحصاء واختبار ومشاهدة متكررة، وطبيعي أن يكون الهدف من دراسة اللغة بهذا المنظور هدفا مطابقا لواقع اللغة العربية ، فلا هو متعارض معها ، ولا هي متعالية على الإنسان الذي يتداولها، فمهمة علماء اللغة الأوائل كانت منحصرة في إيجاد طريقة تيسر على متعلم اللغة العربية من غير العرب استعمال العربية كما يستعملها العربي نفسه في مختلف السياقات والظروف.

ولابد من التنبيه مرة أخرى على أن القواعد اللغوية التي وضعها المتقدمون من علماء العربية لم تكن عبارة عن نماذج صورية كما هو معروف اليوم في اللسانيات الغربية ، أو قوالب مجردة تجعل من المتكلم خاضعا لها تابعا لنسقها؛ لذا يعد هذا عاملا قويا ومباشرا في الإقبال على تعلم اللغة العربية حينها ؛ لانعدام الهوة بين ما كان مستعملا في الحياة اليومية ، وما كان مقعدا له في أبواب نحوية أو صرفية أو أسلوبية أو بلاغية.

خلاصة القول، هي أن اللغة العربية لمّا كانت في ظل خطوات المنهج الخبري ، ظلت لغة عادية مستعملة من قبل متكلمين عاديين في ظروف زمكانية عادية ، مما أتاح للعلماء الأوائل جمع مدونة لغوية عربية من الموجود بالفعل شعرا ونثرا عبر السماع، فضلا عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما الأصلين البارزين في ذلك كله، وهذا بدوره جعلهم يصوغون قواعد وضوابط لما كان موجودا من اللغة بالفعل من طريق الاستقراء من دون محاولة لإخضاع ذلك إلى النظر الذي يحتم على إقصاء الواقع الفعلي للغة وإحلال محلّه واقعا لغويا آخر هو من وضع صاحب النظر نفسه، أو في أحسن الأحوال إخضاع الواقع اللغوي الفعلي لمستلزمات وقيود النسق

النظري بوصفه مؤسسا على مجموع الفرضيات المنسجمة والمتسقة التي تشكل قولا ومنهجا نظريا خالصا، وهنا مكمن المفارقة بين أن يكون الهدف من دراسة اللغة هو وضع قواعد تساعد على التعليم وصون اللسان عن الوقوع في الخطأ، أي:أن تكون الثمرة تعليمية أساسا، وبين أن يكون الهدف هو صياغة نسق نظري مجرد ينظر إلى اللغة نظرة صورية خالصة في معزل عن الواقع.

المرحلة الثانية:

ب - اللغة العربية في ظل المنهج النظري :

انطلاقا من معرفة خواص المنهج الخبري الذي انضوت فيه اللغة العربية قديما، يتجلى لنا قسيمه وهو المنهج النظري ، ومعرفة خواصه هو الأخر تتطلب منا السير على الخطى نفسها التي اتبعناها في بيان خواص المنهج الخبري ، وعليه يتحدد المقصود بالمنهج النظري في دراسة اللغة العربية في كونه الطريقة العقلانية التي يتبناها وينتهجها علماء اللسانيات الحديثة ، ابتداء من فجر هذا العلم في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا، إلاّ أن الذي يعنينا في هذا المقام هو تبني هذا المنهج النظري في دراسة اللغة العربية عند بعض اللسانيين العرب المحدثين ، بوصفهم متأثرين بما أنتجه العقل الغربي في ميدان اللغة من نظريات وأنساق وأقوال علمية في دراسة مختلف الظواهر اللغوية : لذا سيكون مفيدا أن نحصر ذلك في المدونة والمنهج والهدف قصد الوقوف على طبيعته وعلى الاختلاف والتحول الذي اعترى اللغة العربية، باعتبارها لغة كانت في ظل المنهج الخبري ، فصارت بظهور اللسانيات الحديثة في ظل المنهج النظري.

لا يخفى على أي مهتم بشأن اللسانيات عامة، واللسانيات العربية الحديثة خاصة، حجم التأثر الذي بلغه العرب المحدثون بالنظريات اللسانية الغربية ، ولأدل على ذلك من تشكل تيارات لسانية عربية تتبنى الطرح الغربي في دراسة اللغة العربية ، وصرنا نسمع عن البنويين العرب من الأسلوبيين والوظيفيين والسيميائيين، والتوليديين والتداوليين العرب، وهكذا دواليك، فكان أن وجدنا أنفسنا أمام منتج لساني عربي حديث وضخم يتوق إلى وضع نظرية لسانية عربية حديثة بانتهاج الطريقة العقلانية في ذلك، أعني اجتهادهم في تطبيق المنهج النظري ذي المواصفات الغربية على اللغة العربية تارة بالإسقاط الأنطولوجي ، وتارة أخرى بالمقاربات الحداثية المتعددة. بناء على هذا سنحاول بيان الخواص التي تميزت بها اللغة العربية في ظل المنهج النظري على النحو الآتي :

1- المدونة :

سبقت لنا الإشارة إلى أهم خاصية تميزت بها المدونة اللغوية في إطار المنهج النظري ، وهي خاصية الانغلاق على نفسها ، وكنا بيّنا أنها مدونة لغوية تختلف في جوهرها عن مفهوم المدونة اللغوية العربية التي تم جمعها في إطار المنهج الخبري ، وهذا يعني أن العلماء المتبنين للمنهج النظري في دراسة اللغة الإنسانية عموما، والعربية خصوصا، سيتعاملون مع مجموع معطيات لغوية محدودة تم رصدها والاكتفاء بها، من دون الالتفات إلى ما سوى ذلك. فاللغة عند أصحاب المنهج النظري هي نسق مكتف بذاته، وله الأسبقية الأنطولوجية على أجزاء اللغة نفسها، ومعلوم أن هذا المفهوم يتضمن شيئا من الافتراض والصورية البحتة، وهو الذي تبنته بقوة مختلف التيارات والمدارس اللسانية البنوية منها خاصة.

وبما أن المدونة اللغوية مغلقة على نفسها، بوصفها نسقا مجردا، فإن هذا يعني أن العلماء من أهل المنهج النظري سيعتمدون في دراسة اللغة على " مجموعة من النصوص جمعت في مكان معين وزمان معين ، بغية وصفها الوصف العلمي من الناحية اللغوية."[5] وقد زاد أندري مارتيني (A. Martinet) ضبط المدونة اللغوية باشتراط عدم جواز أن تُمس بأي تغيير سواء أتعلق الأمر بالزيادة فيها أم بالإنقاص منها؛ إذ لا يصح أن يعتمد في دراسة اللغة إلا على ما جمع من معطيات[6] لغوية في شكل نسق منسجم ومتسق، وممثل للغة المدروسة، فضلا عن كونها مدونة لغوية شاملة، وستكون هذه شروطا ضرورية[7] في كل مدونة لغوية في ظل المنهج النظري تروم الموضوعية والدقة العلمية في البحث اللساني.

من هذا المنطلق، تعد هذه المدونة اللغوية التي يشتغل عليها هؤلاء العلماء " مجموعة نصوص تجمع مرة واحدة على اتصال حتى يمكن أن توصف اللغة التي تنتمي إليها هذه المدونة بكيفية موضوعية... والمقصود هو أن تكوّن المدونة عينة فقط "[8] من الكلام المجموع. وإذا كان الأمر على هذا النمط ، فإن المدونة اللغوية العربية وغيرها في ذلك سواء، أي: أن تكون متصفة بالانغلاق وهو مؤشر واضح على النسقية والانتقائية بحكم المعطيات أو العيّنات المحدودة التي جُمعت ، كما أنّها تتصف بالافتراضية المؤدية إلى الصياغة الصورية للقواعد والقوانين اللسانية المراد وضعها للغة المدروسة.

ونحن إذا تأملنا المنجز اللساني العربي الحديث المتأثر بالمنهج النظري تبيّن لنا أنه اعتمد بشكل واضح المفاهيم اللسانية الغربية في دراسة اللغة العربية، وفي مقدمتها المدونة اللغوية : لأن

الهم العلمي الأساس الذي كان يحمله اللسانيون العرب المحدثون هو كيف يتم صياغة نسق نظري لساني به تدرس اللغة العربية دراسة علمية وموضوعية بعيدا عن المعطيات اللسانية التي حدّدها العلماء العرب القدامى خاصة في مفهوم المدونة : لذا نلفيهم يميلون ميلا عظيما إلى وضع نظرية لسانية عربية تتماشى مع متطلبات الطرح العقلاني في اللسانيات الغربية. وهنا يجوز لنا القول بأن اللغة العربية شهدت منعرجا خطيرا تجلى في تحولها عن المنهج الخبري إلى المنهج النظري ، أو بعبارة أخرى: انتقلت من المسموع إلى العقلاني.

فالنماذج التي قدمها بعض الباحثين اللسانيين العرب في إطار المنهج النظري تنبيء عن توجه عقلاني محض متأثر إلى أبعد الحدود بالمنجز اللساني الغربي العقلاني، باعتباره قولا علميا نظريا في مقابل القول العلمي الخبري، وتكفي الإشارة هنا إلى المشروع اللساني الذي قدّمه كل من عبد القادر الفاسي الفهري في العديد من مؤلفاته اللسانية ذات التوجه التوليدي والتحويلي[9] وأحمد المتوكل في كتاباته اللسانية الوظيفية[10] ومحاولة عز الدين المجذوب في كتابه المنوال النحوي[11] الذي تبنى فيه الطرح الغلوسيماتيكي في مقاربة اللغة العربية ، بالإضافة إلى أعمال لسانية أخرى تندرج في التوجه عينه.

وبالمقابل، نجد أعمالا لسانية عربية جادة لم تتبن المنهج النظري على الصورة الغربية العقلانية في دراسة اللغة العربية ، بل آثرت أن تعود أدراجها إلى التراث لتحيي المفاهيم اللسانية العربية وفي مقدمتها مفهوم المدونة. فابتدأ أصحاب هذا المنحى اللساني من المسموع العربي كما هو في أصالته ومنهجه الخبري. ولعل من أبرز هذه الأعمال اللسانية العربية المشروع الذي قدّمه عبد الرحمن الحاج صالح في العديد من كتاباته اللسانية ذات البعد الخليلي[12] وأحمد العلوي[13] في مشروعه اللساني الذي أطلق عليه اللسانيات القرآنية. الرافض للعقلانية الغربية في دراسة اللغة العربية ، وكذلك محمد الأوراغي في كتاباته اللسانية ذات التوجه النسبي[14] الناقد للنزعة الكلية في اللسانيات؛ لكونها صورة من صور المنهج النظري العقلاني.

2- المنهج :

إذا كان الغالب على الدراسات اللسانية العربية القديمة من الناحية المنهجية هو المنهج الاستقرائي، فإن المنهج الغالب على الدراسات اللسانية الحديثة التي أنتجها العقل الغربي عموما، هو المنهج الفرضي – الاستنباطي؛ أو بالأحرى ، اعتمدت اللسانيات الغربية خاصة ، وبعض

البحوث اللسانية العربية الحديثة المتأثرة بها،الطريقةَ الاستنباطية في دراسة اللغة الإنسانية ، ومعنى ذلك أن الأساس الذي يرتكز عليه هذا المنهج هو الانطلاق من وضع فرضيات أولية ، أو مجموع قضايا مبدئية مُسلّم بها على اعتبار أنها بديهات لا تقبل البرهان أصلا ، فهي صادقة في ذاتها. فمن هذه الأوليات يتشكل النسق النظري اللساني،أو النظرية العلمية بواسطة جملة من الخطوات والمراحل المنهجية الصورية المنصوص عليها، ذات البعد المنطقي والرياضي، ولهذا المنهج حضور قوي جدا في لسانيات لويس هلمسليف الغلوسيماتيك[15] وكذا في اللسانيات التوليدية والتحويلية لدى تشومسكي.[16]

يتميز هذا المنهج العلمي بالصورية البحتة، وقاعدته هي الفرضية الأولية، وصدقه صدق منطقي وهو رهن بشروط ضرورية تتمثل في الانسجام والاتساق والبساطة، مما يقتضي تحقق الاكتفاء الذاتي فيه، فتتشكل على إثر ذلك نواة صلبة[17] متضمنة فيه كما أننا نلفيه منهجا – عند التأمل فيه جيدا – غير متصل بالواقع الفعلي للظاهرة المراد دراستها، وهي هنا اللغة الإنسانية عموما، واللغة العربية خصوصا.

فتكون اللغة في هذه الحالة تابعة للنسق النظري وخاضعة لشروطه الضرورية مثلما هي عند أهل النظر، وليس العكس هو الحاصل، ويظهر ذلك بوضوح من الأمثلة والشواهد التي تضرب عادة في تعليل القواعد أو تطبيقها.

هذا، وقد يتجلى البعد الافتراضي في هذا المنحى اللساني في العمل المتواصل على ألاّ يلحق أي خلل إلى البنية الداخلية للنسق النظري في سياق الاختبار التجريبي له، وإذا كان ذلك،بأن صار النسق النظري اللساني في تعارض تام مع الواقع اللغوي الفعلي ، فإنّ أصحاب المنهج النظري يشكّكون في كفاية الواقع اللغوي نفسه، بوصفه واقعا لغويا غير منسجم ولا هو بمتسق: لذا ستكون الأحقية في صياغة واقع لغوي جديد، أو إعادة صياغته عبر الصورنة، للمنهج النظري: لكونه مؤسسا على خطوات وضوابط منطقية ورياضية لا تقبل الدحض، فضلا عن امتلاكه كفايات وصفية وتفسيرية إبيستيمولوجية عالية جدًا ، وهذا الأمر يفتقر إليه الواقع اللغوي الفعلي في نظر أهل المنهج النظري في اللسانيات كما في غيرها من فروع المعرفة العلمية العقلانية.

فدراسة اللغة بهذا المنهج النظري لا يتعلق فيه الأمر باللغة التي يتداولها المتكلمون فيما بينهم في سياقات وظروف مختلفة ومتصلة بالزمان والمكان، مثلما هو الحال في البحوث اللسانية العربية القديمة؛ بل يتعلق الأمر هنا بتوجه صوري ومنطقي تخضع له اللغة ومتكلّموها، فلمّا لم

يكن ذلك متاحا بالفعل نظرا للإشكالية الإبستيمولوجية المتمثلة في التعارض بين الواقع والنظرية، لجأ العلماء في المنهج النظري إلى ابتكار واقع لغوي جديد من وضعهم هم، نظرا لأن المدونة اللغوية التي اتخذوها موضوعا دراسيا هي في الأصل نسق مجرد مغلق على نفسه، فينتج عن هذا أنّ اللغة التي يتكلم عنها علماء اللسانيات في ظل المنهج النظري ليست هي اللغة العادية، ولا المتكلم والمستمع اللذان يوصفان في المنهج النظري هما المتكلم والمستمع الفعليان، ولا الواقع اللغوي الفعلي هو الواقع اللغوي الذي توجد فيه اللغة الخاضعة للزمان والمكان، فوجود اللغة بهذا الوصف رهن بوجود النسق النظري اللساني.

من هذا المنظور، يتبين عمق الاختلاف بين أن تكون اللغة مدروسة في إطار المنهج الخبري، وبين أن تكون مدروسة في إطار المنهج النظري، وهو ما يحدث مع اللغة العربية اليوم: إذ تحولت من منهج الخبر إلى منهج النظر،بحكم التأثير المستمر الذي تشهده الحضارة العربية والإسلامية بكل ما ينتجه العقل الغربي من نظريات ومناهج ومفاهيم علمية.

3- الهدف :

يزداد الفرق وضوحا عند معرفة الهدف الذي يروم تحقيقه علماء اللسانيات في إطار المنهج النظري ، فإذا كان هدف العرب القدامى من دراسة اللغة العربية محددا في الجانب التعليمي ، فإن الهدف الأساس الذي يسعى إليه الباحثون العرب المحدثون من دراسة اللغة العربية هو صياغة أو ابتكار نسق نظري لساني بالمواصفات والشروط والضوابط المنطقية والرياضية ذات التوجه العقلاني الغربي ، وهذا في الحقيقة يعد نتيجة طبيعية يصل إليها كل من كان منطلقه المنهج النظري بالطريقة الفرضية الاستنباطية.

فشتان بين العمل على تيسير سبل تعلم العربية وجعل ذلك ثمرة دراستها علميا، وبين العمل وبذل الوسع في وضع نظرية لسانية بها تدرس اللغة العربية ، أو بعبارة أخرى، اشتغل علماء اللغة العرب القدامى على دراسة اللغة العربية في ظل المنهج الخبري بدءا بمدونة لغوية مسموعة ومقتبسة من واقع لغوي فعلي، فأدى بهم ذلك إلى بناء نظرية لغوية واقعية تكون فيها العلاقة بين الواقع اللغوي والنظرية اللغوية متبادلة؛ أي:هي علاقة ثنائية، في حين يشتغل اللسانيون العرب المحدثون في دراستهم للغة العربية في ظل المنهج النظري على اختراع نظرية لسانية عربية أولا، ثم إخضاع الواقع اللغوي العربي لها – وهذا ما يقتضيه المنهج النظري العقلاني – فيوصلهم ذلك إلى وضع نسق لساني مجرد تكون فيه العلاقة بين اللغة العربية الفعلية، والنظرية اللسانية العربية

علاقة أحادية الجانب[18] فالنسق النظري اللساني الموضوع، أو النظرية اللسانية هي التي تؤثر في الواقع اللغوي الفعلي ولا تنعكس القضية ؛لأن ذلك يرتبط بمفهوم النسق المغلق على نفسه الذي تمت صياغته وفق الشروط والضوابط المنطقية والرياضية اليقينية عندهم.

وخلاصة القول، هي أن الهدف الأسمى والرئيس من دراسة اللغة عموما بقوانين المنهج النظري هو التحكم في اللغة والعمل على عقلنتها، وذلك بجعلها موجودة في عالم معقلن هو الآخر، وعليه ستكون النظرية الموضوعة أولا هي التي تتولى ذلك الأمر وصفا وتفسيرا باعتماد آليات في مقدمتها الصورنة .

وممّا سبق يمكننا القول بأن اللغة العربية تقلّبت في الأقل بين منهجين علميين مختلفين عبر مراحلها التكوينية والتطورية، أولهما: هو المنهج الخبري أي: المنهج القرآني الذي اتخذه العلماء المتقدمون قاعدة معرفية ومنهجية في دراسة اللغة العربية، وقد توصلوا جرّاء تقيدهم بالمنهج الخبري إلى نتائج علمية دقيقة وموضوعية، بل منها ما كان سابقا على عصره . وثانيهما: هو المنهج النظري، أي: المنهج العقلاني كما صاغه اللسانيون الغربيون، واتخذوه قاعدة معرفية ومنهجية في دراستهم للغة الإنسانية، وهو عين المنهج الذي تأثر به معظم الباحثين اللسانيين العرب المحدثين الذين حاولوا به دراسة اللغة العربية باعتباره منهجا كفيلا بأن يمكّنهم من وضع نظرية لسانية عربية، بمواصفات عالمية أو غربية في الأقل.

فبتبنيهم للمنهج النظري حاليا في دراستها من حيث المنطلق، يفضي حتما إلى لغة عربية صورية، كون النظر يفرض نسقا محددا ومؤسسا سلفا على أصول وقواعد صورية منطقية يسودها جانب كبير من الافتراض، فاللغة هنا لا تكون مراسية البتة، وثمرتها لا تتحدد في صون اللسان عن الوقوع في الخطأ؛ بل تكون افتراضية وصورية بشروط منطقية ورياضية خالصة:لأن المدونة اللغوية العربية في هذا التصور تحولت إلى نسق مغلق ومصوّرن معا.

الإحالات :

[1] ينظر: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربية، مصر.ط1423-2003.ص 15. وأبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار ابن حزم، بيروت لبنان، والمكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1/ 1427- 2006. ص37 -42. وأبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت لبنان، ط1399/3 – 1979. ص89 -90.

[2] السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2011/3. ص24.

[3] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.ص 251.

[4] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 271-272.

[5] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 267.

[6] voir : A. Martinet, éléments de linguistique générale, 4eme ed. A. Colin, paris 1998. P30-31. et G. Mounin, Dictionnaire de la linguistique, 4eme ed, puf, paris 2004. P 98. et J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, larousse, paris 1999. P123-124.

[7] voir : A.J. Greimas, Sémantique générale, 2eme ed, puf, paris 1995. P143-144. et Greimas et J. Courtés , Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed Hachette, paris 1993. P73-74.

[8] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص268.

[9] ينظر عبد القادر الفاسي الفهري:

- اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط1993/3.
- البناء الموازي، توبقال، الدار البيضاء المغرب، 1986.
- المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، توبقال، الدار البيضاء المغرب، 1985.

-Linguistique arabe, forme et interprétation, P.F.L.S.H.Rabat, 1982.

[10] ينظر أحمد المتوكل :

- اللسانيات الوظيفية، عكاظ، الرباط .المغرب، 1978.
- أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، منشورات كلية الآداب، الرباط. المغرب، 1993.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دار الأمان المغرب، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم لبنان، ط1/ 2010.
- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء المغرب، 1986.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية،البنية التحتية أو التمثيل الدلالي، دار الأمان الرباط المغرب،1995.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان الرباط المغرب، 2001.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان الرباط، المغرب، 2006.

– مسائل النحو العربي في قضايا النحو الوظيفي، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، 2008.

[11] ينظر عز الدين المجذوب: المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب سوسة، ودار محمد علي الحامي، تونس، ط1/1998.

[12] ينظر عبد الرحمن الحاج صالح:

– السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 .

– بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

– البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، 2016.

– منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

– Linguistique arabe et linguistique générale, E.N.A.G. Algérie, 2011.

[13] ينظر أحمد العلوي:

– ظهور اللغة وعناوين الظهور، مجلة دراسات أدبية ولسانية، العدد 4/ صيف – خريف، 1986.

– من تماثيل الأحجار إلى تماثيل الأنظار، بحث في أركيولوجيا المعرفة اللسانية، جريدة المحور الثقافي، العدد 7/ ديجنبر 1987.

– آية الفكر وكبرياء النظر، مجلة الموقف، العدد 1/ مارس 1987.

– اللغة والعقلان، مجلة الموقف، العدد 8/ ديجنبر 1988.

– العقلانية اللغوية العربية، منشورات فكر، المغرب، ط1/2014.

– Épistémologie de la linguistique arabe, linguistique, islam et épistémologie, ed Okad, Rabat, 1998.

[14] ينظر محمد الأوراغي:

– الوسائط اللغوية، دار الأمان الرباط المغرب، ط1/ 2011.

– نظرية اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1/ 2010.

– اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب، منشورات ضفاف لبنان، ط2/2014.

[15] voir : L.Hjelmslev, prolégomènes à une théorie du langage, traduction d'Una Cagner, ed de Minuit, paris 1971.

[16] voir : N.Chomsky, linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, traduction de N. Delanoë et D. Sperber, ed du Seuil, paris 1969.

– N. Chomsky, aspects de la théorie syntaxique, traduction de Jean Claude Milner, ed du Seuil, paris 1971.

– N. Chomsky, et G. A. Miller, l'analyse formelle des langues naturelles, traduction de P. Richard et N. Ruwet, ed Mouton/ Gauthier Villars, paris 1968.

[17] اقتصرنا في هذا السياق على ذكر الخطوات الأساسية للطريقة الفرضية الاستنباطية؛ إذ التفصيل فيها يقتضي بحثا مستقلا؛ لذا سنكتفي بالإحالة إلى بعض المراجع التي فصلت فيها:

– L. Rougier, la structure des théories déductives, ed librairie Felixe Alcon, paris 1921, ch. 2, p 32. Ch. 3, p 63.

– J. Cavaillès, méthode axiomatique et formalisme, Hermann éditeurs, paris, 1938. Ch. 2. P 76.

– R. Blanché, l'axiomatique, 3eme ed, puf paris.2009. ch. 2. P 29. et ch.4. p 75.

– Denis Mieville, introduction à la théorie des systèmes formels, CdRS. Université de Neuchatel, Suisse, N° 4, 1991. Tome 1, ch.1. p 1-20.ch.2 p 23.ch.3. p 43.

أما فيما له صلة بمفهوم النواة الصلبة، فينظر: إمري لاكاتوس، برامج الأبحاث العلمية ، ترجمة محمد ماهر عبد القادر علي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1/ 1997. ص 116-117.

وأما ما له علاقة باللسانيات ، فينظر: محمد بن شماني، الغلوسيماتيك والأكسيوماتيك، ضمن كتاب أبحاث في الغلوسيماطيقا، تحرير وترجمة يوسف إسكندر، سلسلة دراسات فكرية، جامعة الكوفة العراق، دار الرافدين بيروت لبنان، ط1/ 2019.ص 263-288.

[18] ينظر في مفهوم التأثير الذي تمارسه النظرية اللسانية في الواقع اللغوي الفعلي في إطار المنهج النظري باعتباره قولا علميا نظريا، محمد بن شماني، أحادية تأثير القول النظري اللساني، مجلة مطارحات في اللغة والأدب، تصدر عن معهد الآداب واللغات المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان، العدد 5. 2016 ، ص 114.